ليس من يقطع طرقاً بطلاً...

واعتبر أن اللبناني يتميّز بعدائيته لكلّ فكرة إجتماعية للتنمية عبر إصراره على التشبث بما يسميه حريته الشخصية. لكن هذا الأمر لا يجب أن يشجع الفوضى ويضاعف التجاوزات. بل يجب أن يدفع الدولة إلى وضع نظام يضبط الحرية في إطار المصلحة العامة لكي لا تنتهي الجهود الفردية إلى هدر يؤثّر على معدّل النمو، وتناقضات تجعل من المستحيل قيام أي انسجام. إن العوامل الإيجابية عديدة من دون شك لكن لا يجب أن تغطي أو تخفي العوامل السلبية العديدة (البنيوية، الإجتماعية، السياسية)، وإنما

إنّ من يتّقي الله البطل...

يجب أن يكون هناك نوع من التنسيق بين تدخّل الدولة في النشاط العام والمبادرات الفردية الخاصة لكي يتسنى تحقيق نمو نسبي، ملائم، منسجم، إصلاحي. إن النسبية تقضي باستعمال الوسائل الضرورية للوصول إلى غاية التنمية.

ومما لا شك فيه أن التنمية تنطلق من معرفة ما يجب تنميته وتطويره ومعرفة المعطيات العامة عن طريق الإحصاء والمسح الشامل للثروات الوطنية المختلفة، وتنفَّذ متى توفّر شرط تنسيق وتجميع الجهود والقوى المتوفرة. لهذا اعتمدت

الشهابيّة على هذا النوع من التصرّف وراحت تبني، في مهلة قصيرة نسبياً، أسس الدولة اللبنانية الحديثة.

إن خلاصة الدراسة التي ارتكزت عليها الشهابيّة في وضع خطتها الإجتماعية الشاملة، تشدد على أهمية الدور العالمي للبنان بحكم موقعه على مفترق حضارات عدة تلتقي فوق أرضه لتؤكّد للعالم أن تعايشها ممكن وموجود. فلبنان، بقعة لا تستطيع العيش والبقاء باعتمادها على مجرّد موارد أرضها، حتى الدفينة منها، يؤكّد هذا الأمر، الإرتفاع المتزايد في نسبة النمو السكاني مما يحتم علينا البحث عن موارد خارجية منها تلك التي يؤمّنها مهاجرونا جزئياً، ومنها أيضاً تلك التي تتأتى عن الخدمات التي يقدّمها اللبنانيون لحركة التبادل العالمية ومنها أخيراً ما يجنيه توظيف الرساميل الوطنية في الخارج. إنطلاقاً من هذه الحقيقة، عملت الشهابيّة على تحسين وتوجيه إستغلال الموارد الطبيعية البنيوية من أجل تشغيل أكبر عدد ممكن من المواطنين ومن أجل الحدّ من تأثير التلاعبات الدولية بلقمة الوطن. لكنها اصطدمت بتسرّب الإدخار اللبناني إلى الخارج في وقت كان فيه لبنان بأمسّ الحاجة إلى إستثمارات وطنية مما طبع إقتصادنا بطابع «عشوائية» لم يلغها إلا تدخّل الدولة الشهابيّة لتأمين حدّ أدنى من الإنضباط الجماعي.

إن تحرّك الشهابيّة السريع وتنفيذها لمشاريع المياه والطرقات والمدارس والمؤسسات العامة والأجهزة المتخصصة، شكّل العنصر الأساسي لتأثيرها على الوضعية الإنسانية والإقتصادية للشعب اللبناني. خاصة وأنها أدركت أن مشاركة هذا الشعب الفعالة في الجهد الضخم اللازم للتنمية لا يتحقق طالما بقيت التجمّعات الأساسية في المناطق منعزلة مفتقرة إلى نظام بلدي يتناول كلّ القرى التي يزيد عدد سكانها على الخمس مئة.

ويطول الكلام على الخطة الشهابيّة وتتشعّب حولها الآراء وتتناقض وتبقى الحقيقة التي لا تقبل الجدل وهي أن ما سعت إليه دراسة بعثة «إيرفد» ما يزال كلّ تراث

التخطيط الرسمي الشامل منذ واحد وستين عاماً. وعندما تتحدث الشهابيّة عن التخطيط، تنطلق من موقع العارف والمجرّب ومن صفة أبوّتها لأهمّ المنجزات الوطنية في فترة ما بعد الإستقلال، لتسجّل الحقيقة المتمرّدة على كلّ محاولات البناء والتنظيم والتشريع حتى إشعار آخر، تلك الحقيقة التي تقول بأن أهمّ ما يفتقده ويفتقر إليه لبنان، ليس الثروات ولا الطرقات ولا المساحات ولا العقول وإنما هو ذلك السر الذي تقوم عليه الأوطان فتنمو وتتطوّر ألا وهو: «روح التعاون» المفترض وجودها في أساس أي عيش جماعي وأيّ عمل وأية خطة.

عن شهاب والشهابيّة يقول فؤاد بطرس في المذكرات:

«سوف يبقى فؤاد شهاب في مخيلتي ذلك المارد الذي اقترنت أحلامه ومواقفه واقتناعاته بأعمال ومشاريع ملموسة حاولت في مرحلة من الزمن وضع أسس ثابتة للبنان كدولة تؤمّن تطلعات جميع أبنائه. تسلّم من سلفه زمام السلطة في البلاد وهي منقسمة ومشرذمة، تسودها أعمال عنف وأجواء من عدم الإستقرار. وسلّم خلفه دولة موحّدة مستقرّة قائمة على إدارة عصرية تحكمها ذهنية جديدة ويحرّكها حلم واقتناع بإمكانية تعايش سلمي بين المجموعات اللبنانية في تناغم وتسامح وتفاعل فتجعل من لبنان وطناً بكلّ ما لهذه الكلمة من معنى. قامت إستراتيجية الرئيس شهاب خلال سنوات حكمه على المعادلة التالية: إشعار كلّ مجموعة لبنانية أن حضورها غير منتقص

وأن خصوصياتها مأخوذة بالإعتبار ومحترمة، وفي المقابل، تحترم المجموعات الدولة اللبنانية بكامل مؤسساتها ككيان وطني مترفّع حيادي ومستقل يعمل في سبيل الخير العام. كان مدركاً أن ما يحاوله غير قابل للتحقيق بين ليلة وضحاها وأنه يحتاج إلى فترة طويلة لكي يصبح راسخاً في أذهان اللبنانيين وملموساً في سلوكهم. وقد قال لي يوماً: «أنا لا أريد القيام بثورة لتغيير الوضع القائم لأني لا أريد العودة بالبلد إلى الوراء، بل أهدف إلى تغيير الأمور بصورة طبيعية وفي شكل تدريجي».

عندما لا تكون هناك أقليّة أو أكثرية...

حاول الرئيس شهاب أن يُشعر المسيحيين بأنهم يعيشون في دولة حرة، سيدة، مستقلّة، لا يتدخّل في شؤونها الداخلية أحد ولا تفرض عليها سياسة محاور تلزمها بالتقوقع وتجرّها إلى الحرب. منذ اليوم الأول لولايته، أضحت سيادة لبنان شبه هاجس تحكم بخيارات فؤاد شهاب السياسية كلّها. وابتداءً من إجتماع الخيمة الشهير ورمزيته ودلالاته، تمسّك بهذا التوجّه ودافع عنه بطريقة ذكية جعلت الرئيس المصري جمال عبدالناصر لا يطلب من لبنان ما يطلبه من سواه من الدول العربية، وأعتقد أن عبدالناصر أدرك أن للبنان خصائص وطاقة محدّدة ليس بإمكانه أن يطلب أكثر منها. والفضل في ذلك يعود في إعتقادي بمعظمه إلى فؤاد شهاب الذي عرف عبر تصرّفاته السياسية ونزاهته وترفّعه كيف يقنع نظيره المصري بأن يراعي الوضع اللبناني

ويحترم حقه في حرية التحرّك لا سيما في القضايا المتعلّقة بالشؤون الداخلية، وكذلك في القضايا المرتبطة بالسياسة الخارجية بقدر ما هي خارج نطاق العالم العربي.
أذكر تحديداً كيف أن عبدالناصر تفهّم موقف لبنان الذي لم يقطع علاقاته الدبلوماسية مع فرنسا إبّان الأزمة الجزائرية، ولم يحاول أن يفرض رأيه بطريقة أو بأخرى. ومن الأمثلة على تمسّك الرئيس شهاب بسيادة لبنان وكرامة أبنائه ما أخبرني إياه اللواء أحمد الحاج عن طريقة وداع الرئيس اللبناني لنائب الرئيس الأميركي ليندون جونسون الذي زاره مطلع الستينات. إذ عندما خرج جونسون من مكتب الرئيس فوجئ الحاضرون أن الرئيس شهاب توقّف عند عتبة باب المكتب ولم يرافق ضيفه إلى أبعد مكتفياً بالقول: «وداعاً، حضرة نائب الرئيس».
وتولّى كبار موظفي القصر الجمهوري مرافقة الضيف الأميركي إلى الخارج، فنظر الرئيس شهاب إلى اللواء الحاج، وكان في حينه نقيباً، وقال له: «هذا نرافقه إلى هنا فقط، لو كان الضيف الرئيس كينيدي لكنت رافقته إلى الخارج. موقع رئاسة الجمهورية ليس ملكي، إنه ملككم وعليّ أن أحافظ عليه من أجلكم».
في المقابل، تفهّم الرئيس شهاب نبض الشارع الإسلامي المتعاطف مع القضايا العربية الكبرى وفي مقدّمها القضية الفلسطينية. والتزم خط التفاهم مع الرئيس عبدالناصر مجسّد آمال الشعوب العربية وتوقها في حينه إلى نهضة في وجه إسرائيل التي يدعمها العالم الغربي. فتمثّل لبنان في جميع المؤتمرات المخصصة لتعزيز القدرات العربية وشارك فيها مشاركة فعّالة وحافظ على الإلتزامات والقرارات على قدر ما كانت تسمح له إمكاناته بذلك مثل تحويل مياه الينابيع التي تصبّ في نهر الأردن وبحيرة طبرية وإنشاء مكتب مقاطعة إسرائيل وغيرها من الإجراءات.
على الصعيد الداخلي، أولى الرئيس شهاب المناطق النائية ذات الأغلبية الإسلامية إهتماماً كبيراً قد يكون الأكثر فاعلية حتى يومنا هذا، لاعتباره أن لا إمكانية لاستمرار السلم والإستقرار إن تعمّقت الفوارق الإجتماعية بين اللبنانيين. ولطالما اعتبر أن من الصعب أن تطلب الدولة ولاء من لا تشعره بأنها مسؤولة عنه ومضطلعة بشؤونه ومهتمة بمشاكله ومصيره. ومن المعروف أنه في عهد الرئيس فؤاد شهاب وُلدت معادلة ٦ و٦ مكرّر في الوظائف العامة، أي اعتماد المناصفة في التوظيفات، بعد أن جرى تطبيقها في الجيش اللبناني أثناء قيادته له. وكان المسلمون قبل ذلك يشكون من طغيان العنصر المسيحي في الإدارة

ويطالبون بكوتا ثابتة لإنصافهم. لم تصل المسايرة للمسلمين إلى حد التراخي، بل كان فؤاد شهاب يمارس صلاحياته كاملة وفق ما نصّ عليه الدستور. ولم يتساهل في الأمور الأساسية، ومَن كان يتعدى حدوده اصطدم به.

حدود المراعاة للطوائف كانت تنتهي عند باب الإدارة وبالتحديد عند بوابة مجلس الخدمة المدنية المدخل الوحيد لولوج الوظيفة العامة. لقد أراد فؤاد شهاب أن يبني دولة القانون بالمعنى الصحيح حيث تكون هناك مؤسسات تعمل باستقلالية تامة ومن غير الإرتهان لرجال السياسة أو الطوائف، فأنشأ وحصّن مجلس الخدمة المدنية، وديوان المحاسبة، وهيئة التفتيش المركزي. ولا أذكر، طوال عهده، أن قراراً واحداً لمجلس الخدمة المدنية أو لغيره من الأجهزة تمّ نقضه أو تجاوزه في مجلس الوزراء الذي كان يحرص بدوره على تعيين أناس موثوق بعلمهم ونزاهتهم في هذه المناصب الحساسة. وكان الرئيس شهاب يجيب عندما يراجعه أحد بقرار ما اتخذته هذه الهيئات، بالقول: «إنهم يعرفون ما يقومون به». وفي مجالسه الخاصة كما في الإجتماعات الرسمية، كان يشدد على أهمية إستقلالية أجهزة الدولة ويحضّ الجميع على احترامها معتبراً أن احترام المسؤولين للقانون هو ما يصنع هيبة الدولة وليس فقط إحترام المواطنين له. وأذكر أن وزيراً ونائباً كسروانياً أعرب عن انزعاجه، على هامش أحد إجتماعات الحكومة، لأن قوى الأمن الداخلي حررت محضر ضبط بحقّه في ساحة الشهداء لأن سيارته كانت متوقّفة في مكان ممنوع، فانتفض الرئيس شهاب وقال له: «لماذا تحتج؟ تريد تطبيق القانون على الآخرين، ولا تريد تطبيقه على نفسك؟».

أما ما جعل أسلوبه في الحكم ساحراً، ومستقطباً للعديد من الشخصيات والفعاليات السياسية، فهو طبعه الشخصي الذي مهر طروحاته بخاتم الصدقية. كان فؤاد شهاب مارداً في الكبر، وعزّة النفس، والوطنية، والنزاهة، لكنه في المقابل، لم يكن متعجرفاً، بل لطيفاً ومهذباً ومتواضعاً إلى أقصى الحدود. تميّز بالتحفّظ وبحفظ الحدود بينه وبين الآخرين، فلم يكن يعطي سرّه بسهولة. لم يكن خجولاً ولا وقحاً فظاً، كان يتكلّم بإتزان فيقول الحقيقة دون أن يجرح، ويحلّل الأمور بتروٍّ، وبُعد نظر، وما لم يكن يعرفه وغير متأكّد من معلوماته حوله لا يتكلّم فيه إلا بعد أن يشبعه درساً. وفي ما خصّ علاقاته مع الناس، أظن أن تقويمه للأشخاص على وجه الإجمال لم يخطئ. ولم يتوقع من الإنسان أكثر من طاقته وقلّما شعر بأنه توهّم أو بالغ في توقعاته. عندما كنا نجلس معاً، كان يجري تقويماً

لأداء الوزراء المشاركين في الحكومة، ولطالما إتسم تقويمه بالعدل والمنطق المعقول فكان لا يتهجّم ولا يقسو عليهم، وفي الوقت عينه، لم يكن متساهلاً معهم. ومن مميزاته أيضاً التجرّد، ومراعاة المبادئ القانونية بكلّ دقة، والتقشّف، فلم يحب السهرات والحفلات والدعوات على مختلف أنواعها، وكانت حياته أقرب إلى التنسّك، حتى أنه دُعي في وقت من الأوقات، «ناسك صربا». وكان هاجسه الدائم أن يستفيد لبنان من تجارب دول العالم المتقدّم وأن يشغل مكاناً متقدّماً في الأسرة الدولية.

باختصار شديد، تلك كانت ذهنية الرئيس شهاب واستراتيجيته في الحكم التي على أساسها نشأ عليها ما عُرف بالنهج الشهابي أو بالشهابيّة التي صارت، على الأقل بالنسبة إلينا، نحن من آمنا بأسلوب عمل فؤاد شهاب، مذهباً في السياسة ومثالاً في الأخلاق والتجرّد والترفّع التي يفترض أن يتحلّى بها كلّ وافد على الشأن العام. حاول أخصام الرئيس فؤاد شهاب أن يشوّهوا صورة عهده وأن يلصقوا به زوراً أنه كان عهد طغيان الأسلوب العسكري والمخابراتي على الحياة السياسية. ولكن أمانة للتاريخ لم ألمس يوماً أن الرئيس شهاب حاول أن يفرض طريقة تفكير العسكريين، بل أراد أن يستوحي السياسيون من الحياة العسكرية روح الإنضباط والإلتزام والعمل الجماعي والتضحية من أجل بلدهم في وطن طالما اتصف سياسيوه بالمزاجية والأنانية والشخصانية والتضحية بالوطن من أجل مصالحهم ومستقبلهم السياسي.

ولا أزال متأكداً من أن خريطة الطريق لبناء الدولة اللبنانية الحديثة والقوية والوطن الذي يعيش فيه جميع أبنائه في استقرار ورفاهية لا يمكن أن تكون إلا متطابقة مع تلك التي وضعها فؤاد شهاب والتزم بتطبيقها أثناء ولايته الرئاسية. نجح الرئيس شهاب في وضع الدعائم الصحيحة والمتينة، لكن المشكلة أو رواسب أحداث العام ١٩٥٨، والظروف التي سادت المنطقة في العصر الناصري، لم تسهّل توطيد الوفاق الوطني الحقيقي. فبقي كلّ شيء سطحياً، واستمرّ التباين في العمق في المواقف والآراء حول المسائل الكبرى. حاول الرئيس شهاب دائماً أن يراعي الوضع بانتظار أن تترسخ روح المواطنية عند اللبنانيين ويتعزز الشعور بالإنتماء إلى الوطن. كانت هناك رؤية ورغبة عند الحكم في كلّ ذلك، لكن الشعب لم يكن ناضجاً لهذا الأمر، فيما الطبقة السياسية، بوجه عام، التي كان يسميها «بأكلة الجبنة» لم تكن ناضجة وطنياً ولم تكن مستعدة للتضحية بالمصالح الشخصية والحزبية الضيّقة في سبيل الخير العام ومستقبل البلاد. وأعتقد أن جوهر المشكلة تمثّل بأمرين: قصر المدة الزمنية قياساً مع حجم الإنجازات التي قام بها وخطط لها العهد، والتي كانت بحاجة إلى المزيد من الوقت والظروف الملائمة كي تأتي بالثمار المرجوّة، من جهة، وعدم قدرة النهج الشهابي على اختراق حواجز التعبئة الشعبية التي جعلت الناس يتفاعلون كجماعات طائفية لا سيما عندما غاب العنصر الناصري وطرحت مسائل خلافية، من جهة ثانية.

في الجامعة اليسوعية مع العميد غير السياسي الأب جان دو كروييه

وكثيراً ما كنت ولا أزال أتساءل ويسألني البعض من حولي: لو قبل الرئيس فؤاد شهاب بالتعديل الدستوري الرامي إلى إعادة انتخابه، هل كان تمكّن من تحصين لبنان ضد الأزمات التي عرفها بعد العام ١٩٦٧؟ لا أدعي أن فؤاد شهاب كان وجد حلولاً لكلّ المشاكل التي وقعت تباعاً في لبنان، خصوصاً أنه لم تحصل مشكلة كان مصدرها الأساسي والوحيد لبنان بقدر ما انعكست التعقيدات الإقليمية على الوضع اللبناني الهش والفاقد المناعة. فالظروف والمعطيات الموضوعية كانت ستؤدّي إلى النتيجة عينها تقريباً، أياً كان رئيس الجمهورية. ففؤاد شهاب لم يكن يمتلك العصا السحرية التي كانت وحدها كفيلة بإنقاذ الوضع اللبناني المتجه، منذ هزيمة العام ١٩٦٧، بخطى متسارعة نحو الإنفجار. ربما كان استطاع الرئيس شهاب، بشخصيته المتزنة وهيبته وتجرّده، أن يخفف من حدة بعض الأمور أو يربح وقتاً ويؤخّر وقوع القدر المشؤوم الذي ما لبث أن ضرب اللبنانيين، وأن يحول دون الأسوأ الذي عانينا منه في بعض المراحل.

لم يعرف الرأي العام اللبناني فؤاد شهاب في الخمسينات والستينات حق المعرفة. أما أجيالنا الطالعة فلا تعرف الكثير عن هذا الرجل الذي كانت له يد بيضاء في محاولة بناء الدولة اللبنانية وتحقيق الحلم اللبناني وترسيخ وطن يأخذ فيه كلّ مواطن من أبنائه حقه كاملاً من غير منّة رجل السياسة وزعيم الطائفة ووساطة نافذ. وسيبقى النهج الشهابي مدرسة في الوطنية، والتجرّد في سبيل الخدمة العامة، والإنتماء إلى لبنان من غير أن يبدو

هذا الإنتماء تخلياً أو تنكّراً لهوية أو ذاكرة أو تراث أو إيمان، ولكنني أتساءل عمّا بقي من إنجازاته.

كم من مرّة، في هذه الأيام، أتذكّر فيها فؤاد شهاب مترحِّماً ومتحسِّراً. وحين أفكّر فيه وأقارن أداءه وإنجازاته بأداء بعض مَن شغلوا مناصب رفيعة في الدولة منذ ذلك الحين، أشعر بالخيبة. كان تقديري له كبيراً خلال الفترة التي عملت فيها إلى جانبه، ولكن بعد كلّ هذه السنوات، أستطيع القول، بكلّ ثقة، إنني لمست لمس اليد أنه أكثر المسؤولين تمتعاً بوضوح الرؤية في مجال فهم الواقع اللبناني واستنباط مشاريع حلول للمشاكل التي تطرحها التعددية الطائفية والثقافية والحزبية والإجتماعية. وفي استعراض لكلّ العهود الرئاسية منذ الاستقلال إلى يومنا هذا، نجد أن الرئيس فؤاد شهاب هو الرئيس الوحيد الذي باشر مشروعاً واضحاً لبناء الدولة وتحديثها واستمرّ بتنفيذه وصيانته بترفّع وإيمان ومواظبة حتى الدقيقة الأخيرة من عهده على أمل توطيد الركائز التي يقوم عليها الوطن، كما سعى للمجيء بخلف يمضي قدماً في عملية استكمال تنفيذ المشروع.

إلى سنين عديدة...

وأودّ أن أختم هذا الفصل بفحوى حديث جرى بين الرئيس شهاب وبيني في أحد الأيام لدى استعراضنا الطاقات الوطنية لبعض أفراد الطبقة السياسية والمعايير التي يعتمدونها في عملهم. فكانت النتيجة أننا عجزنا عن إيجاد جواب عن السؤال التالي: «أين السياسيون الذين إذا ما

اصطدمت مصلحتهم الخاصة بالمصلحة العامة يعطون الأفضلية للثانية؟».
إن فؤاد شهاب يستحق أن يُصنّف في طليعة رجال الدولة، وهؤلاء قلّة في لبنان. وإذا أردنا إختصار ما يؤهّله لهذا المقام نقول إنه عمل في سبيل لبنان الغد والأجيال القادمة مزاوجاً بين الواقع والحلم، معتمداً التخطيط في الحقلين الإجتماعي والإقتصادي، مما حدا بالبعض إلى القول إن فؤاد شهاب هو مَن أدخل الهم الإجتماعي إلى السراي في لبنان بعدما كان غريباً عنه.
كان فؤاد شهاب جندياً من جنود الجمهورية، وأحد أنصار الديموقراطية. وربما جعله إيمانه بالمؤسسات يتألّم من عيوبها وتقصيرها، ويتمنى بشدّة أن يراها تتكيّف، في نطاق الشرعية المؤسساتية، وإجماع الأغلبية، مع مقتضيات التطوّر في عصرنا. وكان الرجل يخفي وراء تحفّظه المطبوع بالحياء مروءة قلّ نظيرها، وكان الجذاب، الوفي، الصادق، الشديد الإحتشام والشهامة، الذي يجتنب غالباً الكشف عن دخيلة نفسه، بفضل نمط تفكيره وأجوبته الفولكلورية الحاضرة، فكان على محدثيه إدراك ما يستأثر باهتمامه، واكتشاف ما يشعر به. وقد حاول ذلك الكثيرون ولكن لم يفلح إلا من كان ذا حدس سليم، ولطالما افتخرت بأني كنت في عداد القلّة التي كان لها حظ أن تكون من معاوني رئيس كبير للجمهورية، بشهادة خصومه قبل أصدقائه، هو فؤاد شهاب.

•••